المحاضرة العاشرة

اهمية الخلافة وتطورها

النظرية السياسية في الاسلام :

كانت الدولة الاسلامية ذات طبيعة دينة لأنها قامت على أساس الإسلام . وكان الرسول (ص) يجمع في يده كل السلطات باعتباره رسول الله ومنفذ كلمته المتمثلة في تعاليم القرآن الكريم . ومع ذلك فإن هذه الدولة عرفت السلطات الثلاثة : التشريعية والقضائيه والتنفيذية ، التي أخذت تتميز عن بعضها بالتدريج بعد عصر الرسول (ص) ، نتيجة توسع الدولة وتطورها الاقتصادي والاجتماعي ، وبسبب تعدد المشاكل والحاجات التي وجدت في المجتمع واستدعت فصلاً بين السلطات . وقد عرف الفقهاء المسلمون ثلاث وظائف هي : التشريع والقضاء والتنفيذ . إن القضاء لم ينفصل تماماً عن السلطة التنفيذية ، غير أن النظام الإسلامي فصل تماماً بين الوظيفتين التشريعية وهي لله وحده وبين السلطة التنفيذية وهي للخليفة .

أهمية الخلافة :

الخلافة هي أخطر وظيفة في الدولة الإسلامية ، اعتبار أن الخليفة إنما يحل محل الرسول (ص) في رئاسة المسلمين وإدارة شؤون (الأمة) الدينية والدنيويّة . ولهذا تركزت في يد الخليفة كل السلطة التنفيذية ، حتى ليمكن القول أنه كان بمثابة رئيس الدولة والحكومة معاً بحسب المصطلحات العصرية . وبسبب هذه الأهمية القصوى أصبحت الخلافة الموضوع الرئيسي التي احتدم حوله النقاش والجدل بين الفرق الدينية و الأحزاب السياسية التي انبثقت عن هذه الفرق ، كونت كل فرقة منها وجهة نظر خاصة بالخلافة (الإمامة) عكس وجهة نظرها السياسية والدنيوية . كما أن المباحث المستفيضة حول هذا الموضوع تكون جانباً مهماً وخصباً من التراث الفكري السياسي الإسلامي .

تعريف الخلافة :

وضع العلماء و المؤرخون المسلمون عندة تعريفات للخلافة أو(الإمامة) نقتبس منها هذين التعريفين الجامعين :

١- النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، اذ إن أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إذا اعتبارها المصالح الآخرة . فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا .

٢- يعرفها الماوردي (الأحكام السلطانية ٣) بقوله " إن الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا " . والذي يتبين من هذين التعريفين :

أولاً : الخلافة هي نيابة عن الرسول (ص) المحافظة على الدين في إدارة الشؤون السياسية للمسلمين .

ثانياً : إن الخليفة هو رئيس الدولة الإسلامية ويجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية .

ثالثاً : إن الخليفة يأتي عن طريق (الأمة) - أي الجماعة الإسلامية - التي يجب عليها أن تساهم في عملية اختيار من ينوب عن الرسول (ص) ، وهذا ما يدعى (وجوب الإمامة) . اما الشيعة الأمامية فلم يروا في الإمام مجرد رئيس السلطة التنفيذية بل قالوا أن الإمام أكبر معلم وقد ورث علومه عن الرسول (ص) وهو ليس شخصا عادياً لأنه معصوم عن الخطأ ، ومن ثم فإن الائمة لهم حق الاجتهاد أي التشريع .

ألقاب الخليفة :

أطلقت على رأس الدولة الإسلامية ثلاثة ألقاب هي ١- خليفة ٢- إمام ٣- أمير المؤمنين .

١- خليفة : أصل هذه اللفظة لغويا من (يخلف خلافة) فالخليفة هو الذي يأتي بعد شخص آخر ويحل محله . وجدير بالذكر ان لفظة خلافة وردت في القرآن الكريم في عدة مواضيع بهذا المعنى منها (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض) (الانعام : ١٦٥) ، (واذ قال ربك للملائكة اني عاجل في الأرض خليفة) (البقرة : ٣٠) ، (وأذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) (الاعراف : ٦٩) .

أطلق لقب خليفة لأول مرة على أبي بكر (رض) لذلك سمي (خليفة رسول الله) بسبب تعدد الخلفاء ، لم تعد هناك ضرورة لتكرار القول خليفة ... رسول الله . وإنما اكتفى القول الخليفة أو (خليفة رسول الله) . ظل هذا لقباً لراس الدولة الإسلامية حتى إلغاء الخلافة في سنة ١٩٢٤ م كما سنرى .

٢- إمام : وهي لفظ دينية في الاصل ترتبط بالصلاة . فالامام هو الذي يتقدم المسلمين - اي يتصدرهم - في الصلاة ، ثم أصبحت تطلق على الخليفة الذي يتصدر الناس في الحياة . ومن ثم قيل (الإمامة الصغرى) لتعني إمامة الصلاة و (الإمامة الكبرى) دلالة على الخلافة . اما الشيعة فأطلق لفظة (إمام) على زعمائهم من ذرية علي وفاطمة (عليهما السلام) ما دام خارج السلطة .

٣- أمير المؤمنين : وهو لقب عسكري في الأساس ، الأمير هو قائد الجند ، ومن ثم فإن (أمير المؤمنين)هو قائد المسلمين في الجهاد . وقد أطلق هذا اللقب على ما اطلق على عمر ابن الخطاب (رض) فاستحسنة المسلمون تمسك به الخلفاء من بعده .

انتخاب الخليفة :

يتم انتخاب الخليفة عن طريق (البيعة) أو (المبايعة) واللفظ مشق من باع ويبيع) . والحق إن عملية انتخاب الخليفة شبهت بعقد البيع الذي يتم بين البائع والمشتري عن طريق المصافحة وهي دلالة الرضى والقبول . وهذا شبيه ما جاءت به النظريات السياسية الحديثة مثل نظرية (العقد الاجتماعي) التي أسسها راسو هي العقد بين الشعب والحاكم الذي يختاره ليتولى شؤونه . إلا أن العرب عرفوا هذا التقليد قبل الأوروبيين بزمن طويل كما ترى . أن البيع تعطى للامام معنى القاعدة الدستورية الحديثة (الأمة مصدر السلطات) .

كيف تتم مبايعة الخليفة ؟ أجمع علماء المسلمين على ضرورة إجراء البيعة أو المباعة عند اختيار الخليفة ، لكنهم اجتهدوا في الأسلوب الذي تتم بموجبه . فلما كان اختيار الخليفة واجباً على كل المسلمين ، وأن تطبيق ذلك كان متعذراً بسبب اتساع الدولة وترامي أطرافها ، فقد أوجد الفقهاء أسلوب (الإنابة) أي أن الشعب (الأمة) عنها ممثلين يقومون بالمبايعة . وهذا هو أسلوب (التمثيل) الذي وجده في الأنظمة السياسية الحديثة ، والذي يعني اختيار نواب أو ممثلين يقومون بالتعبير عن إرادة الشعب في المجالس والهيئات وإذا دعي هؤلاء الممثلون بأسماء مختلفة اليوم ، فقد أطلق عليهم في الدولة العربية الإسلامية تعبير (أهل الحل والعقد) . وقد اشترطوا أن تتوفر فيها هؤلاء صفات أخلاقه وعقلية وهي العدالة والعلم والرأي ، وبتعبير آخر فإن (اهل الحل والعقد) هم النخبة الممتازة في المجتمع من ناحية النزاهة والعلم بحيث يركن الجمهور إليهم ويضع ثقته فيهم . أما الشيعة الأمامية فيرون بأن الامام يمين بنص و أن الرسول (ص) أوصى لعلي وولدهِ المعصومين الإمامة فهي وراثة في الائمة الاثنى عشرة المعصومين محصورة فيهم .

شروط الخلافة :

لما كان منصب الخليفة هو اعلى المناصب في الدولة كما رأينا ، فقد اشترط العلماء أن توفر في الشخص الذي ينتخب لهذا المنصب شروطاً دقيقة هي :

١- أن يكون مسلماً حراً ذكراً بالغاً عاقلاً .

٢- سلامة الحواس ، وتعنى اللياقة البدنية والعقلية والحسية ، أي ان يخلوا المرشح من نقص في عقله او عيب في تكوينه او في احدى حواسه يحولان بينه وبين اداء

واجباته (كالعمى والصـمم او الجنون) ان اختلال هذا الشـرط حال - كما سـنرى - دون بقاء الخليفة في منصـبه في العصـور المتأخرة ، وذلك حين عمد المتسـلطون على الخلافة من الاجانب الى سمل عيون الخلفاء او احداث عاهة بهم مما يؤدي إلى خلعهم بالضرورة .

٣- العدالة ، أي أن يكون المرشح عادلاً واميناً وعفيفاً بحيث لا ترقى اليه الريب .

٤- العلم ، يجب ان يكون المرشـح مجتهداً في الأمور التي لم يرد فيها نص وعالماً بالقرآن والسنة والاجتماع والعلوم الموصلة الى الاحكام الشرعية الصحيحة .

٥- الرأي ، أي الحذق والمعرفة في شؤون الادارة والسياسة والحرب بحيث يستطيع الخليفة اتخاذ القرارات السديدة في جميع المواقف التي تجابهه .

٦- النسب القريشي ، وهو شرط اشترطت كثير من الفرق ومعظم المسلمين ، غير ان الخوارج جوزوا اختبار اي مسـلم تتوفر فيه الشـروط السـابقة مهما كان اصـله ونسبه .

واجبات الخليفة :

يمكن أن نجمل واجبات الخليفة في ما يلي :

١- الغيرة على الدين والعمل على نشره وضمان إقامة شعائره .

٢- القيام بجباية الضرائب الدينية كالفيء والصدقات وتوزيعها في وجوهها الشرعية

٣- الاهتمام بالجهاد في سبيل الله لنشر الدين وحماية البلاد ضد غارات اعدائها .

٤- نشـر العدل ومنع الظلم وحل الخصـومات بين الناس ، والحرص على إشـاعة الأمن والنظام في البلاد حتى يأمن الفرد على حياته أمواله .

٥- معالجة القضايا العامة والاطلاع على مشاكل الناس وحلها .

٦- تعيين الموظفين القائمين بأداء الواجبات الإدارية والمالية ضمانا سير أجهزة الدولة .

تطور الخلافة تاريخيا :

تمهيد : تعرضـت الخلافة لتطور طويل ، ومرت في مراحل تاريخية متعددة عبر القرون العديدة التي عاشـتها الدولة الإسـلامية . فالخلافة قامت على أثر وفاة الرسـول (ص) في سـنة ١١هـ / ٦٣٢م وظلت قائمة نظرياً حتى زوال السـلطة

العثمانية في سـنة ١٩٢٤م . وخلال هذه القرون العديدة ، كان لابد أن تتأثر الخلافة تأثيراً جوهرياً بالأحداث التاريخية العنيفة الكثيرة التي مر بها المجتمع الإسلامي .

ولكي نسـهل على الطالب تتبع أهم التغيرات والتطورات التي أصـابت هذه المؤسسة السياسية المهمة ، سوف نعرض في ما يلي لابرز الأحداث ذات الصلة بالخلافة متبعين في ذلك أسلوب التسلسل الزمني المتعارف عليه .

أولاً - عصر الراشدين (١١-٤٠هـ / ٦٣٢-٦٦١م) :

قامت الخلافة نتيجة إجماع سياسي عقد في سقيفة بني ساعدة في المدينة يمكن أن نسميه (مؤتمر السقيفة) . رقد انبرى الأنصار لعقد هذا المؤتمر أثر وفاة الرسول (ص) مباشـرةً ليتباحثوا فيمن سـيخلفه في حكم المسـلمين . ولكن كبار المهاجرين انضموا إلى هذا الاجتماع للاشتراك في تقرير أهم مشكلة تواجه الجماعة الإسلامية . وقد ظهرت في (مؤتمر السقيفة) وجهات نظر ثلاث في موضوع الخلافة تبلورت بعد نقاش وجدل طويلين بين زعماء الانصار والمهاجرين وهي :

١-رأى الأنصـار ، الذين ذهبوا الى انهم احق بالخلافة لانهم هم الذين نصـروا الرسول واعزوا الاسلام وحموا المسلمين من المهاجرين وشاركوهم في اموالهم وردوا عنهم الأذى . وكان يتزعم الانصار (الأوس والخزرج) سعد بن عبادة .

٢- رأى المهاجرين ، وكان يتزعمهم عدد من السابقين في الاسلام في مقدمتهم أبو بكر وعمر . وقد نادوا بأحقية المهاجرين في خلافة الرسـول باعتبارهم المسـلمين الأول الذين ضحوا بالغالي والرخيص وتحملوا أذى قريش ، وباعتبارهم من عشيرة الرسول (ص) لذلك وجب أن يكون (الأئمة من قريش) على حد تعبيرهم .

٣- وقد رأى فريق ثالث التناوب على الحكم بين الطرفين ، واصـحاب هذا الرأى جماعة من الانصـار قالوا للمهاجرين (منا امير ومنكم امير) . على ان الاقتراح لم يلق قبولا .

لقد كان (مؤتمر السقيفة) اشبه ما يكون ببرلمان شهد اصطراع وجهات النظر ودلل على حيوية في الفكر السياسي العربي . ولولا غياب الهاشميين بزعامة علي بن ابي طالب (ع) الذين انشغلوا بتجهيز الرسول (ص) وبالتالي عدم ساهمتهم في طرح وجهة نظرهم في الخلافة ، لكان هذا المؤتمر شاملاً لجميع وجهات نظر أهل الحل والعقد . ومهما يكن من أمر فقد رجحت كفة المهاجرين وتمت البيعة لابي بكر (ر) في اجتماع السـقيفة نفسـه حين تقدم عمر بن الخطاب وقال لابي بكر : (انت أقدمنا صحبة لرسول الله ، وانت افضل المهاجرين وثاني اثنين وخليفته على الصلاة

... ابسط يدك ابايعك ، وتقدم الحاضرون من المهاجرين والانصار فبايعوا ابا بكر) وهذه هي (البيعة الخاصة) ، وفي اليوم التالي جرت (البيعة العامة) في مسجد المدينة من جانب جمهور المسلمين هناك .

خلافة أبي بكر :

تم اختيار ابي بكر خليفة للرسول (ص) بسبب كبر سنه وبلائه في الاسلام صحبته الحميمة للرسول (ص) .

ويجب ان تلمح هنا الى حقيقة اساسية في الفكر السياسي العربي هي ان المعارضة وجدت دائماً وفي كل المراحل ، وهو امر يدل على الحيوية الفكرية وعلى الديمقراطية . ان المعارضة في هذه الحقبة تمثلت في موقف الانصار وفي موقف الهاشميين ، اما الانصار فقد بايعوا ابا بكر – بعد نقاش مع المهاجرين حول أي الفريقين احق لخلافة الرسول (ص) .

واما معارضة الهاشميين بزعامة علي بن ابي طالب (ع) فقد كانت مبنية على اعتقادهم باحقيتهم في وراثة الرسول (ص) لانهم اهل بيته وأقرب الناس اليه طلحة والزبير، ومع ذلك فان علياً مالبث ان بايع ابابكر وتبعه في ذلك بنو هاشم حفاظاً على وحدة صف المسلمين وتحاشياً لخلافهم . وبذلك تم اجماع (اهل الحل والعقد) - اي زعماء الجماعة الاسلامية - على انتخاب ابي بكر .

ومع أن انتخاب خليفة للرسول تقليد اسلامي صرف ، فان انتخاب ابي بكر ينسجم والتقاليد العربية القديمة في انتخاب شيخ القبيلة (السيد) . وقد اكد ابو بكر في الخطبة التي القاها اثر استخلافه مبدأ اساسياً وهو ان (الامة مصدر السلطات) . وهذا نص الخطبة : "اما بعد ايها الناس فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فاعينوني وان أسات فقوموني . الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوي عندي حتى أخذ الحق له ان شاء الله . والقوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه ان شاء الله ، لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله ، فان لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم الا عمهم الله بالبلاء .أطيعوني ما اطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله ٠ " (تاريخ الطبري ٢١٠/٣) . ارسى انتخاب ابي بكر (ر) جملة تقاليد تتصل بالخلافة ولا تنفصل عن رسومها هي :

١- ان البيعة تمت في مرحلتين ، البيعة الخاصة في السقيفة والبيعة العامة في مسجد المدينة ، فكان البيعة الخاصة تشابه ما يدعى اليوم التسمية أو (الترشيح) ، والبيعة العامة هي ما يسمى اليوم (الاستفتاء العام) .

٢- أصبح من التقاليد المرعية مبايعة الخلفاء بالمصافحة باليد . وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون (المقدمة ٢٠٩) : (اعلم ان البيعة هي العهد على الطاعة ... وكانوا اذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا ايديهم في يده تأكيداً العهد ...) .

٣- كذلك أصبحت الخطبة التي يلقيها الخليفة اثر توليته تقليداً مرعيا ، وهي شبيهه بالخطب التي يلقيها اليوم رؤساء الدول أو الحكومات لشرح برامجهم في الحكم . بحيث اصبح هذا المبدأ مرعيا في العصور التالية .

خلافة عمر بن الخطاب :

جاء ترشيح عمر (رض) للخلافة من جانب أبي بكر مباشرة ، لكن هذا الترشيح تم بعد ان شاور أبو بكر بعض كبار الصحابة في أمر من سيخلفه قائلاً : أترضون بمن استخلف عليكم ؟ وحين ابدوا موافقتهم رشح عمراً ووجه اليه كتاب (التولية) . وهنا يبرز مبدأ جديد في الفكر السياسي الإسلامي هو (تولية العهد) . وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون (المقدمة ٢١٠) : (ان ولاية العهد جائزة باجماع الأمة) ، وقد عبر ابو بكر في كتاب التولية عن وجهة نظره في عمر بقوله (بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد ابو بكر خليفة رسول الله عند آخر عهده بالدنيا واول عهده بالآخرة ... اني استعملت عمر بن الخطاب فان بر وعدل فذلك علمي به ، وان جار وبدل فلا علم لي بالغيب ، والخير ما أردت ...) (عيون الأخبار لابن قتيبة ١٤/١-١٥) .

مجلس الشورى :

تم في عهد الراشدين تطور آخر في الفكر السياسي حين عهد عمر قبيل وفاته في سنة ٢٣ هـ الى (مجلس الشورى) المكون من ستة من الصحابة الكبار اوكل اليهم مهمة اختيار خليفة للمسلمين يأتي بعده ، وهؤلاء هم عثمان بن عفان ، وعلي بن ابي طالب والزبير بن العوام وسعد بن ابي وقاص وعبد الرحمن ابن عوف وطلحة بن عبيد الله . وقد تم اختيار الخليفة الثالث عثمان بن عفان بعد مشاورات ومداولات طويلة . وعلى الرغم من الخلافات التي ظهرت في هذا المجلس الذي ظل منعقدا مدة ثلاثة ايام ، فقد اسفر الاجتماع عن الاتفاق في النهاية .

وبعد مقتل عثمان في سنة ٣٥هـ ، تم اجماع (اهل الحل والعقد) الذي يمثل اجماع الأمة على انتخاب علي بن ابي طالب (ع) وفق التقاليد التي روعيت في بيعة الخلفاء الثلاثة الأوائل .